

قصة إبليس وإبليس

تكلم الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ورضي عنه على قصة آدم وإبليس فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم . عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والحزن والخبيث والطيب) وقوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون) (٢) .

قال ابن عباس في رواية الوالي : الصلصال : الطين اليابس ، وفي رواية الذي إذا نقر صوت . والحمأ : الطين الأسود المتغير اللون ، والمسنون : المتغير الرائحة ، يقال : سنى الماء فهو مسنون إذا تغير .

(١) رواه أحمد في مسنده عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وقد أخرجه أيضاً أبو داود (كتاب السنة) والترمذي (كتاب التفسير) ، كما أخرجه الحاكم والبيهقي .

(٢) سورة الحجر ٢٦ .

وقال سيويه: (١) المسنون المصور على صورة ومثال . وقوله
عصالي : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) (٢) قال ابن القيم (٣) : قال ابن
عباس : (ولقد خلقناكم) يعني : آدم ، (ثم صورناكم) للريته ،
ومثال هذا ما قاله مجاهد : (٤) (خلقناكم) يعني آدم (وصورناكم) يعني
في ظهر آدم ، وفي الحديث المعروف (٥) أنه أخرجهم من ظهر آدم في صورة
الذر ، ونظيره (فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة) (٦) والله سبحانه مخاطب

(١) هو عمرو بن عثمان أبو بشر ، إمام النحاة وأول من بسط علم
النحو ، صاحب كتاب سيويه ، ولد سنة ١٤٨ وتوفي سنة ١٨٠ هـ ،
راجع : وفيات الأعيان ١ - ٣٨٥ وراجع (لسان العرب) في معنى
مسنون .

(٢) سورة الأعراف : الآية : ١١ .

(٣) هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الدمشقي ، العالم
الثبت صاحب المؤلفات الكثيرة الشهيرة ، منها (أعلام الموقعين) و (الطرق
الحكيمة) و (زاد المعاد) و (مدارج السالكين) و (شفاء العليل) و (إغاثة
اللهفان) ... وغيرها ، ولد عام ٦٩١ وتوفي عام ٧٥١ هـ .

(٤) هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي ، مولى بني مخزوم ، تابعي
مفسر ، أخذ التفسير عن ابن عباس .

ولد عام ٢١ وتوفي عام ١٠٤ هـ .

راجع مثلاً : سير النبلاء ج ٤ .

(٥) راجع في كتب التفسير الموسعة ما ذكر في تفسير قوله تعالى :
(وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم
ألمست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا) سورة الأعراف ١٧٢ .

(٦) سورة الحج : الآية ٥ .

الموجودين والمراد أبائهم كقوله : (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة)^(١) وغير ذلك من الآيات ، وقد يستطرد سبحانه من الشخص إلى نوع كقوله : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين)^(٢) إلى آخره ، فالمخلوق من سلالة آدم ، ومن نطفة ذريته ، وقيل إن : (صورناكم) لآدم أيضاً . وقوله تعالى : (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)^(٣) فأضاف النفخ إلى نفسه ، وفي الصحيح - في حديث الشفاعة - « فيقولون أنت آدم خلقتك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء »^(٤) فذكروا له أربع خصائص فالمنفوخ منه الروح المضافة إلى الله إضافة تخصيص وتشريف ، والله هو الذي نفخ في طينته من تلك الروح ؛ وهذا الذي دل عليه النص .

وأما كون النفخة مباشرة منه سبحانه كما خلقه بيده أو أنها بأمره كقوله في مريم : (فنفخنا فيها من روحنا)^(٥) مع قوله : (فأرسلنا إليها روحنا)^(٦)

(١) سورة البقرة : الآية ٥٥ .

(٢) سورة المؤمنون : الآية ١٣ .

(٣) سورة الحجر : الآية ٢٩ وسورة ص : الآية ٧٢ .

(٤) الحديث رواه البخاري (كتاب التوحيد) ومسلم (كتاب القدر) والترمذي (كتاب القيامة) وابن ماجه (كتاب الزهد) ، كما رواه أحمد في مسنده .

(٥) سورة الأنبياء : الآية ٩١ .

(٦) سورة مريم : الآية ١٧ .

إلى آخره فهذا يحتاج إلى دليل ، فإنه أضاف التسخ إلى مريم لكونه بأمه ؛
وإلى الملك لكونه المباشر للتسخ .

وفي القصة فوائد عظيمة ، وعبر لمن اعتبر بها منها أن خلق آدم من تراب
من آيين الأدلة على المعاد ، كما استدل عليه سبحانه في غير موضع ، وعلى
قدرته سبحانه وعظمته ورحمته وعقوبته ؛ وإنعامه وكرمه وغير ذلك من
صفاته .

ومنها أنها من أدلة الرسل عامة ، ومن أدلة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم
خاصة ، ومنها الدلالة على الملائكة وعلى بعض صفاتهم ، ومنها الدلالة على
القدر خيره وشره فقد اشتملت على أصول الإيمان الستة في حديث (١) جبريل ،
ومنها وهي أعظمها أنها تفيد الخوف العظيم الدائم في القلب ؛ وأن المؤمن
لا يأمن حتى تأتبه الملائكة عند الموت تبشره ، وذلك من قصة إبليس وما كان
فيه أولا من العبادة والطاعة ، ففي ذلك شيء من تأويل قوله صلى الله عليه
وسلم : « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها
إلا ذراع » (٢) إلى آخره .

ومنها أن لا يأمن عاقبة الذنب ، ولو كان قبله طاعات كثيرة ، وهو
ذنب واحد فكيف إذا كانت الذنوب بعدد رمل عالج (٣) ، ومن هذا قول
بعض السلف : نضحك ولعل الله اطلع على بعض أعمالنا ، فقال : اذهبوا

-
- (١) رواه البخاري (إيمان) ومسلم (إيمان) والترمذي (إيمان)
وأبو داود (سنة) والنسائي (مواقيت) . كما رواه ابن ماجه وأحمد .
(٢) رواه أصحاب الكتب الستة عن ابن مسعود .
(٣) رملة بالبادية بين فيد والقربيات (راجع : معجم البلدان) .

فلا أقبل منكم عملاً - أو كلاماً هذا معناه - وأبلغ منه قوله صلى الله عليه وسلم ، : « إن العبد ليتكلم (١) بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها مسخطه إلى يوم يلقاه » قال علقمة (٢) : كم من كلام منعه حديث بلال ، يعني هذا .

ومنها أنها تخلع من القلب داء العجب الذي هو أشد من الكبائر .

ومنها وهي من أعظمها أنها تعرف المؤمن شيئاً من كبرياء الله وعظمته وجبروته ؛ ولا يُدَلُّ عليه ولو بلغ في الطاعة ما بلغ ، وقد وقع في هذه الورطة كثير من العباد فمستقل ومستكثر ؛ ومنها التحذير من معارضة القدر بالرأي لقوله : (أرأيتك هذا الذي كرمت على) وهذه بلية عظيمة لا يتخلص منها إلا من عصمه الله لكل مقل ومكتر .

ومنها وهي من أعظمها تأدب المؤمن من معارضة أمر الله ورسوله بالرأي كما استدل بها السلف على هذا الأمر ، ولا يتخلص من هذا إلا من سبقت له من الله الحسنى .

ومنها علم الاحتجاج بالقدر عند المعصية لقوله : (رب بما أغويتني) بل يقول كقول أبيه : (ربنا ظلمنا أنفسنا) الآية .

ومنها معرفة قدر التكبر عند الله خصوصاً مع قوله : (اخرج منها

(١) رواه البخاري (رقاق) والترمذي (زهدي) وابن ماجه (فن) ، كما رواه الموطأ ومسنده أحمد .

(٢) هو علقمة بن قيس النخعي الهمداني ، التابعي فقيه أهل العراق ، كان يشبه بابن مسعود ، روى الحديث عن الصحابة (ت ٦٢ هـ) .

فما يكون لك أن تتكبر فيها) ومنها الفخر بالأصل ، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم التشديد(١) في ذلك ؛ والفخر منهى عنه مطلقاً ، ولو كان بحق فكيف إذا كان بباطل ؟

ومنها الشهادة لما كان عليه السلف أن البدعة أكبر من الكبائر ، لأن معصية اللعين كانت بسبب الشبهة ، ومعصية آدم بسبب الشهوة .
ومنها عدم الاغترار بالعلم ؛ فإن اللعين كان من أعلم الخلق فكان من أمره ما كان .

ومنها عدم الاغترار بالرتبة والمنزلة فإنه كان له منزلة رفيعة ؛ وكذلك بلعام(٢) وغيره ممن له علم ورتبة ثم سلب ذلك .

ومنها معرفة العداوة التي بين آدم وذريته ، وبين إبليس وذريته ، وأن هذا سببها لما طرد علو الله ، ولعن بسبب آدم لما لم يخضع ، وهذه المعرفة مما يغرس في القلب محبة الرب جل جلاله ، ويدعوه إلى طاعته وإلى شدة مخالفة الشيطان ، لأنه سبحانه ما طرد إبليس ولعنه ، وجعله بهذه المنزلة الوضيعة بعد تلك المنزلة الرفيعة إلا لأنه لم يخضع بالسجود لآبينا آدم ، فليس

(١) ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم التشديد في النهي عن الفخر بالآباء ، مثل (إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء .) وفيه - في بعض رواياته - (ليستنهن أقوام يفتخرون بأبائهم) وقد رواه عن أبي هريرة أبو داود والترمذي والبيهقي . وفي معناه أحاديث متعددة .

(٢) هو بلعام بن باعوراء ، راجع تفسير قوله تعالى : (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ...) سورة الأعراف ١٧٥ في كتب التفسير الموسعة .

من الإنصاف والعدل موالاة ، وعصيان المنعم جل جلاله كما ذكر هذه
الفائدة بقوله : (افتتخلونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بس
لظالمين بدلا) (١) .

ومنها معرفة شدة عداوة عدو الله لنا ، وحرصه على إغوائنا بكل طريق ،
فيحتد المؤمن لهذا الحرب عدته ، ويعلم قوة عدوه وضغطه عن محاربه
إلا بمعونة الله ، كما قال قتادة (٢) : إن عدواً يرانا هو وقبيله من حيث
لا نراهم إنه لشديد المؤونة إلا من عصمه الله ، وقد ذكر الله عداوته في
القرآن في غير موضع ، وأمرنا بانخاذه عدواً .

ومنها وهي من أعظمها معرفة الطرق التي يأتينا منها عدو الله ، كما ذكر
الله تعالى عنه في القصة أنه قال : (لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم
لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمالهم) وإنما تعرف
عظمة هذه الفائدة بمعرفة شيء من معاني هذا الكلام . قال جمهور المفسرين :
انتصب صراط بحذف « على » التقدير لأقعدن لهم على صراطك قال ابن القيم :
والظاهر أن الفعل مضمّر فإن القاعد على الشيء ملازم له ، فكأنه قال :
لألزمته ولأرصدته ونحو ذلك ، قال ابن عباس : دينك الواضح (ومن بين
أيديهم) يعني الدنيا والآخرة (ومن خلفهم) يعني الآخرة والدنيا (وعن

(١) سورة الكهف : الآية ٥٠ .

(٢) هو أبو الخطاب الضرير الأكة قتادة بن دعامة السدوسي ، مفسر
الكتاب المحدث ، كان آية في الحفظ ، إماماً في النسب ، رأته في العربية
واللغة وأيام العرب . توفي عام ١١٧ هـ ، راجع مثلاً : المعارف ص ٦٠
وشذرات الذهب ١-١٥٣ .

إيمانهم) قال ابن عباس : أشبه عليهم أمر دينهم ، وعنه أيضاً من قبل الحسنات ، وقوله : (وعن شمائلهم) الباطل أرغبهم فيه ، قال الحسن (١) : (السيئات يحثم عليها ويزينها في أعينهم) .

قال ابن قتادة : أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه إلا أنه لم يأتك من فوقك ، ولم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله ؛ وهو يوافق قول من ذكر هذه الأوجه للمبالغة في التوكيد أي أتصرف لهم في الإضلال من جميع جهاتهم ؛ ولا يناقض ما ذكر السلف ، فإن ذلك على جهة التمثيل ، فالسبل التي للإنسان أربعة فقط ؛ فإنه تارة يأخذ على جهة شماله ، وتارة على يمينه ، وتارة أمامه ، وتارة يرجع خلفه ، فأى سبيل من هذه سلكها وجد الشيطان عليها راصداً له ، فإن سلكها في طاعة لبطه ؛ وإن سلكها بالمعصية حداه ، وأنا أمثل لك مثالا واحداً لما ذكر السلف ، وهو أن العدو الذي من بني آدم إذا أراد أن يمكر بك لم يستطع أن يمكر إلا في بعض الأشياء ، وهي الأشياء الغامضة ، والأشياء التي ليست بعالية ، فلو أراد أن يمكر بك في أمر واضح بئس مثل الترددي من جبل أو بئر وأنت ترى ذلك لم يستطع ، خصوصاً إذا عرفت أنه قد مكر بك مرات متعددة ، ولو أراد لي مكر بك لتتزوج عجوزاً شوهاء وأنت تراها لم يستطع ذلك .

وأنت ترى اللعين أعاذنا الله منه يأتي الآدمي في أشياء واضحة بينة أنها مما حرم الله ورسوله فيحمله عليها حتى يفعلها ؛ ويزينها في عينه حتى يفرح بها ، ويزعم أن فيها مصلحة ويلتم من مخالفه ؛ كما قال تعالى : (لا تحسبن

(١) هو أبو سعيد الحسن بن يسار ، إمام أهل البصرة في زمانه التابعي

الورع (٢١ - ١١٠ هـ) .

الذين (١) يفرحون بما أتوا (الآية وقوله : (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) (٢) وقوله : (ولقد علموا لمن (٣) اشتراه ماله في الآخرة من خلاق) وهذا معنى قول من قال : (من بين أيديهم) من قبل الدنيا فإنهم يعرفونها وعيوبها ومجمعون على ذمها ، ثم مع هذا لأجلها قطعوا أرحامهم وسفكوا دماءهم ، وفعلوا ما فعلوا ، وهذا معنى قول مجاهد (من بين أيديهم) من حيث يبصرون ، فهو لم يقنع بإتيانه إياهم من الجهة التي يجهلون أنها معصية مثل ما فسر به مجاهد (من خلفهم) قال : من حيث لا يبصرون ، ولا من جهة الغيب كما قال فيها بعضهم ، الآخرة أشككهم فيها ، لم يقنع بذلك عدو الله حتى أتاهم في الأمور التي يعرفونها عياناً أنها النافعة وضدها الضار ، وفي الأمور التي يعرفون أنها سيئات وضدها حسنات ، ومع هذا أطاعوه في ذلك إلا من شاء الله منهم كما قال تعالى : (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين) (٤) .

وقال تعالى حكاية عنه : (وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً . ولاضلنهم ولامنينهم (٥) ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغفرن

(١) سورة آل عمران : الآية ١٨٨ .

(٢) سورة البقرة : ٤٢ .

(٣) سورة البقرة : ١٠٢ .

(٤) سورة سبأ : ٢٠ .

(٥) سورة النساء : ١١٨ - ١١٩ .

خلق الله) الآية . قال الضحاك(١) مفروضاً معلوماً ، وحقيقة الفرض التقدير ، والمعنى أن من اتبعه فهو نصيبه المفروض ، فالتاس قسمان : نصيب الشيطان ومفروضه ، وحزب الله وأولياؤه . قوله : (ولأضلنهم) يعني عن الحق (ولأمتنيتهم) قال ابن عباس : تسويق التوبة وتأخيرها ، وقال الزجاج(٢) : أجمع لهم مع الإضلال أن أوهمهم أنهم ينالون مع ذلك حظهم من الآخرة وقوله : (ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام) البتة القطع وهو هنا قطع آذان البعيرة وقوله : (ولأمرنهم فليغيرن خلق الله) قال ابن عباس : دين الله ، وقاله ابن المسيب(٣) والحسن وإبراهيم(٤) وغيرهم ، ومعنى ذلك أن الله فطر عباده على الفطرة وهي الإسلام كما قال تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها)(٥) الآية ؛ وفي الصحيح (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه)(٦) الحديث ، فجمع صلى الله

-
- (١) هو الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني ، كان مفسراً له كتاب في التفسير (ت ١٠٥ هـ) ، راجع مثلاً : ميزان الاعتدال ١ - ٤٧١ .
- (٢) هو إبراهيم بن السري عالم النحو واللغة البغدادي ، ولد عام ٢٤١ وتوفي عام ٣١١ هـ .
- (٣) هو أبو محمد سعيد بن المسيب المخزومي القرشي ، سيد التابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، كان راوية لفقهِ عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
- (٤) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس ، أبو عمران النخعي ، كان قفياً من أكابر التابعين ، وفقه أهل العراق في عصره (٤٦ - ٩٦ هـ) .
- (٥) سورة الروم : الآية ٣٠ .
- (٦) رواه البخاري ومسلم والطبراني في الكبير والبيهقي في السنن .

عليه وسلم بين الأمرين تغيير الفطرة بالتهويد وغيره ، وتغيير الحلقة بالجدع ، وهما اللذان أخبر إبليس أنه لا بد أن يغيرهما ، ثم قال تعالى : (يعدمهم ويمتيعهم) فوعده ما يصل إلى قلب الإنسان نحو سيطول عمرك وتناك من الدنيا وتعلو ، والدنيا دول وستكون لك ويطول أمله ، ويعده الحسنى على شركه ومعاصيه ، ويمنيه الأماني الكاذبة على اختلاف وجوهها ، فالوعد في الخير ، والتمنية في الطلب والإرادة .

ومنها أن معرفة هذه القصة تزرع في قلب المؤمن حب الله تعالى الذي هو أعظم النعم على الإطلاق ، وذلك من صنعه سبحانه بالإنسان وتشريفه ؛ وتفضيله إياه على الملائكة ، وفعله بإبليس ما فعل لما أبى أن يسجد له ، وخلقته إياه بيده ونفخه فيه من روحه ؛ وإسكانه جنته ، وقد خاطب الله سبحانه بني اسرائيل الموجودين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بما فعل مع آبائهم ، وذكرهم بذلك واستدعاهم به ، وذكرهم أنه فعله بهم كقوله : (وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) (١) وغير ذلك ، وذكر النعم التي هي أصل الشكر الذي هو الدين ، لأن شكرها مبني على معرفتها وذكرها ؛ فمعرفة النعم من الشكر بل هي أم الشكر كما في الحديث (٢) « من أسدي إليه معروف فذكره فقد شكره فإن كتم فذره كفره » هذا في الأشياء التي تصدر من بني آدم فكيف بنعم المنعم على الحقيقة والكمال؟

(١) سورة البقرة : الآية ٥٠ .

(٢) روى بمعناه عن ابن عباس ، ورواه أحمد في مسنده بمعناه

عن عائشة .

واجتمع الصحابة يوماً في دار يتلاكرون ما من^١ الله عليهم به من بعثه محمد صلى الله عليه وسلم .

ومنها أن التأويل الفاسد في رد النصوص ليس عنراً لصاحبه ، كما أنه سبحانه لم يعثر إبليس في شبهته التي أبدأها كما لم يعثر من خالف النصوص متأولاً مخطئاً ، بل كان ذلك التأويل زيادة في كفره .

ومنها أن مثل هذا التأويل ليس على أهل الحق أن يناظروا صاحبه ، ويبينوا له الحق كما يفعلون مع المخطيء المتأول ، بل يبادر إلى عقوبته بالعقوبة التي يستحقها بقدر ذنبه ؛ وإلا أعرض عنه إن لم يقدر عليه ؛ كما كان السلف الصالح يفعلون هذا وهذا ، فإنه سبحانه لما أبدى له إبليس شبهته فعل به ما فعل ؛ ولما عتب على الملائكة في قيلهم أبدى لهم شيئاً من حكمته وتابوا ؛ وقد وقعت هذه الثلاث لرسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوته التي فتح الله فيها مكة ، فإنه لما أعطى المؤلفة قلوبهم ووجدت عليه الانتصار عاتبهم واعتذروا وقبل عذرهم ؛ وبين لهم شيئاً من الحكمة ، ولما قال له ذلك الرجل العابد (اعلم) قال له كلاماً غليظاً ؛ واستأذنه بعض الصحابة في قتله ولم ينكر عليه^(١) ؛ لكن ترك قتله لعذر ذكره ، ولما فعل خالد بن الوليد ببني جذيمة ما فعل رد عليهم ما أخذ منهم ووداهم ، ولا نعم أنه عاتب^(٢) خالداً ولا منعه ذلك من تأميره على الناس .

-
- (١) راجع : سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام ج ٤ ص ١٤٤ تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد) - طبع دار الفكر .
(٢) راجع : المرجع السابق ص ٥٥ وما بعدها ، ففيه تفصيل ذلك .

ومنها أن الشبهة إذا كانت واضحة البطلان لا عذر لصاحبها ، فإن الخوض معه في إبطالها تضييع للزمان وإتعاث للحيوان ، مع أن ذلك لا يردعه عن بدعته ، وكان السلف لا يخرجون مع أهل الباطل في ردّ باطلهم كما عليه المتأخرون ، بل يعاقبونهم إن قدروا وإلا أعرضوا عنهم . وقال أحمد لمن أراد أن يرد عليهم : اتق الله ولا تنصب نفسك لهذا ، فإن جاءك مسترشداً فأرشده . وهو سبحانه لما قال اللعين : (أنا غير منه) قال : (اخرج منها فإنك رجيم) ولما قالت الملائكة ما قالت : (قال إني أعلم ما لا تعلمون) (١) ثم بين لهم ما بين حتى أذعنوا .

ومنها معرفة قدر الإخلاص عند الله ، وحماية لأهله لقول اللعين : (إلا عبادك منهم المخلصين) فعرف عبدو الله أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص .

ومنها أن كشف العورة مستقر قبحة في الفطر والعقول لقوله : (فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما) وقد سماه الله فاحشة .

ومنها أنه لا ينبغي للمؤمن أن يفتن بالفجرة ، بل يكون على حذر منهم ولو قالوا ما قالوا ، خصوصاً أولياء الشيطان الذين تسبق شهادة أحدهم بيمينه ويمينه شهادته ، فإن اللعين حلف (إني لكما لمن الناصحين) .

ومنها أن زخرفة القول قد تخرج الباطل في صورة الحق كما في الحديث « إن من (٢) البيان لسحراً » فإن اللعين زخرف قوله بأنواع منها تسمية

(١) سورة البقرة : ٣٠ .

(٢) رواه أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي .

الشجرة شجرة الخلد ؛ ومنها تأكيد قوله : (إني لكما لمن الناصحين) وغير ذلك مما ذكر في القصة ؛ فينبغي للمؤمن أن يكون من زخرف القول على حذر ، ولا يقنع بظاهره حتى يعجم العود .

ومنها أن في القصة شاهداً لما ذكر في الحديث : « إن من العلم (١) جيبلاً » أي من بعض العلم ما العلم به جهل والجهل به هو العلم ، فإن اللعين من أعلم الخلق بأنواع الخيل التي لا يعرفها آدم ، مع أن الله علمه الأسماء كلها فكان ذلك العلم من إبليس هو الجهل ، وفي الحديث : (إن الفاجر خب لئيم (٢) وإن المؤمن غر كريم) وأبلغ من ذلك وأعم منه قول الملائكة : (أنجعل فيها من يفسد فيها) فليل لهم ما قيل وعوتبوا ، فكانت توبتهم أن قالوا : (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) (٣) فكان كما لهم ورجوعهم عن العتب وكمال علمهم أن أقروا على أنفسهم بالجهل إلا ما علمهم سبحانه ، ففي هذه القصة شاهد للقاعدة الكبرى في الشريعة المنبه عليها في مواضع منها قوله صلى الله عليه وسلم : (وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها) (٤) .

(١) رواه أبو داود عن بريدة ، ويروى (إن من البيان سحراً وإن من العلم جهلاً) .

(٢) رواه أبو داود (كتاب الأدب) والترمذي (كتاب البر) ، كما رواه أحمد في مسنده ٣ - ٢٩٤ .

(٣) سورة البقرة ٣٠ - ٣٢ .

(٤) راجع في هذا المعنى : الترمذي (كتاب اللباس) وابن ماجه (كتاب الأطعمة) ، وصحيح البخاري (كتاب الاعتصام) وصحيح مسلم (كتاب الفضائل) ، وراجع تفسير قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) سورة المائدة : ١٠١ في كتب التفسير الكبيرة .

ومنها أنه لا ينبغي للمؤمن أن يفتخر بخوارق المادة إذا لم يكن مع صاحبها استقامة على أمر الله ، فإن اللعين أنظره الله تعالى ولم يكن ذلك إلا إهانة له وشقاء له ، وحكمة بالغة يعلمها الحكيم الخبير ، فينبغي للمؤمن أن يميز بين الكرامات وغيرها ، ويعلم أن الكرامة هي لزوم الاستقامة . ومنها أن الأمور التي يحرص عليها أهل الدنيا قد تكون عقوبة ومحنة ، والجاهل يظنها نعمة مثل المال والجاه وطول العمر ، فإن الله أعطى اللعين من النظرة ما أعطاه .

ومنها أن يعلم المؤمن أن الذنوب كثيرة ولا نجاة له منها إلا بمعونة الله وعفوه ، وأن كثيراً منها قد لا يعلمه من نفسه ، فإن أكثر الكبائر القلبية مثل الرياء والكبر والحسد ، وترك التوكل والإخلاص وغير ذلك قد يتلطف بها الرجل وهو لا يشعر ، ولعله يتورع عن بعض الصفات الظاهرة ، وهو في غفلة عن هذه العظام .

ومنها أن يعرف قدر معصية الحسد وكيف آل باللعين حسده إلى أن فعل به ما فعل .

ومنها وهو من أحسنها أن يعرف صحة ما ذكر عن بعض السلف أن من لم يجاهد في سبيل الله ابتلى بالجهاد في سبيل الشيطان ؛ ومن بخل بإنفاقه المال في طاعة الله ابتلى بإنفاقه في المعاصي وفيما لا يتفهمه ، ومن لم يمش في طاعة الله خطوات ، مشى في طاعة الشيطان أميلاً وأشباه ذلك ، والدليل من القصة أبلغ من هذا بكثير ، فإن اللعين أرى أن يسجد لزعمه أن ذلك نقص في حقه ، ثم صار بعد ذلك يكدر جهده في القيادة والديالة وأنواع الرذائل .

ومنها أن في القصة معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » (١) إلى آخره . ومن ذلك قوله حكاية عن إبليس : (ولأمرنهم فليغيرن خلق الله) فإنهم ذكروا في معناه أي أمرهم بتغيير خلق الله ، وهي فطرته التي فطر عباده عليها ، وهي الإسلام لله وحده لا شريك له .

ومنها أن فيها معنى القاعدة الكبرى في الشريعة المذكورة في مواضع : منها : قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » وهي من قوله : (ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام) فإنهم ذكروا أن معناه قطع آذان البهيرة تقرباً إلى الله على عادات الجاهلية .

ومنها أنها تفيد المعنى العظيم المذكور في قوله تعالى : (واعلموا أن الله يحول بين المرء (٢) وقلبه) وما في معناه من النصوص ، وذلك مستفاد من صنع اللعين ؛ فإنه مع علمه بجبروت الله وأليم عذابه ، وأنه لا محيص له عنه ؛ ويعرف من الأمور ما لا يعرفه كثير من أهل العلم ، ومع ذلك لم يتب ولم يرجع ، بل أصر وعاند ، وطلب النظرة لأجل المعصية مع علمه بعقابه وعدم مصلحته من فعله ، وهذا باب عظيم من معرفة الرب وقدرته ، وتقليبه القلوب كيف يشاء ، وتيسيره كل عبد لما خلق له فيفعله باختياره .

ومنها أن الله سبحانه قد يعاقب العبد إذا غضب عليه بعقوبات باطنة في دينه وقلبه لا يعرفها الناس ، مع إمداده إياه في الدنيا كما قال تعالى :

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه وسبق في ص ٩٠ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٢٤ .

(فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم (١) إلى يوم يلقونه بما أحلفوا الله ما وعدوه)
كما فعل إبليس .

ومنها أن فيها شهادة لما ذكر عن بعض السلف أن من عقوبة السيئة
السيئة بعدها . ومنها أنها تفيد القاعدة المعروفة أن الجزاء من جنس العمل ،
وذلك أنه قصد الترفع فقبل له : (اخرج إنك من الصاغرين) فقصد العز
فأذله الله بأنواع من الذل .

ومنها الشهادة لصحة الكلام المذكور عن بعض السلف في قوله : والله
إن معالجة التقى التقوى أهون من معالجة غير التقى الناس ، وقول من قال :
مصانعة وجه واحد أهون من مصانعة ألف وجه ، وبيان ذلك أن اللعين
لما تخيل أن عليه من أمر الله شيئاً من النقص ، فلو قدم طاعة الله وآثرها على
هواه وسجد لآدم ، فلو قدر أن ما تخيله صحيح وأن ذلك غضاضة عليه ،
لكان في جنب ما أتاه من الشر والهوان والصغار جزءاً يسيراً فالله المستعان ،
فكيف ولو فعل ذلك لكان فيه شرفه وسعاده ، كما هو عادة الله في خلقه أن
من تواضع لله رفعه .

ومنها أن الفاجر قد يعطيه الله سبحانه كثيراً من القوى والإدراكات في
العلوم والأعمال حتى في صحة الفراسة ، كما ذكر عن اللعين حين تفرس
فيهم أنه يغويهم إلا المخلصين فصدق الله فراسته في قوله : (ولقد صدق
عليهم إبليس (٢) ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين) فإن قيل في الحديث :

(١) سورة التوبة : الآية ٧٧ .

(٢) سورة سبأ : الآية ٢٠ .

« اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » (١) فلا يناقض ما ذكرناه ، بل يدل على أن المؤمن أتم في هذه الخصلة من غيره وأصدق ، كما كان في العلم والإيمان والأعمال والحلم والصبر وغير ذلك ، ولو كان للفجار شيء من ذلك. ومنها الشهادة للقاعدة المعروفة في الشريعة أن كل عمل لا يقصد به وجه الله فهو باطل ، لاستثنائه المخلصين .

ومنها الشهادة للقاعدة الثانية وهي أن كل عمل على غير اتباع الرسول غير مقبول ، لقوله في القصة : (اهبطوا منها جميعاً إلهماً يأتينكم مني (٢) هدى) الآية فقسم الناس إلى قسمين : إلى أهل الجنة ، وهم الذين اتبعوا الهدى المنزل من الله ، وأهل الشقاق والضلال ، وهم من أعرض عنه فانتمت هذه القصة لهاتين الآيتين العظيمتين اللتين هما أكبر قواعد الشريعة على الإطلاق ، القاعدة الأولى فيها حديث عمر « إنما الأعمال بالنيات » (٣) والقاعدة الثانية حديث عائشة « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » (٤) .

(١) رواه الطبراني والترمذي من حديث أبي أمامة ، وأخرجه الترمذي أيضاً من حديث أبي سعيد .

وراجع تقريراً موسعاً عن تخريجه في (كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس) للمفسر المحدث الشيخ إسماعيل ابن محمد العجلوني (ت ١١٦٢ هـ) ج ١ ص ٤٠ - ٤١ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٣٨ .

(٣) الحديث متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ورواه ابن حبان بدون (إنما) ، ولم تصح روايته إلا عن عمر ، لكنه اشتهر بعد ذلك ، وقد سبق تخريجه في ص ٤٤ .

(٤) سبق تخريجه في ص ٤٤ .

وقال أيضاً : وقوله عز وجل : (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون) إلى قوله : (ويحسبون أنهم (١) مهتدون) هذه الآية ذكرها الله سبحانه بعدما رد على الكفار عبادات يتقربون بها إليه ولم يشرعها ، منها أنهم إذا حجوا طافوا بالبيت عراة يقولون : الثياب التي عصينا الله فيها لا نظوف فيها ، فقال الله رداً عليهم : (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون) .

والفاحشة في هذا الموضع إخراج العورة للعبادة ، مثل ما يفعل كثير من الناس يكشف عورته للاستنجاء وغيره ينظرة ، يريد بالاستنجاء في هذه الحالة التقرب إلى الله ، فلما رد عليهم الباطل أخبرهم بالحق الذي شرعه فقال : (قل أمر ربي بالقسط) وهو العدل (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) وهو إقامة الصلاة بحقوقها (وادعوه مخلصين له الدين) يقول : ادعوه بهذا الشرط (لا تدعوا مع (٢) الله أحداً) يقول الأمور التي تعبدونني بها لم آمركم بها ، والأمور التي أمرتكم بها لا تفعلونها ؛ فالظلم والبغي

(١) قوله تعالى : (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تهودون . فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة لأنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) سورة الأعراف : الآيات : ٢٨ - ٣٠ .

(٢) قوله تعالى : (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) سورة الجن : الآية ١٨ .

ضد القسط وهو جاهكم وسمتكم الذي تبدلون فيه الأعمار والأموال، وإقامة
الوجه عند كل مسجد لا تفعلونها ؛ إن فعلتم صليتم صلاة لا تجزيء والإخلاص
منكر عندكم ، ودينكم الذي ترجون به الثواب هو الشرك .

إذا فهمت هذا فتأمل أحوال من تعرف ونزل هذه الآية على أحوالهم
تري العجب . ثم قال : (كما بدأكم تعودون) أي لا بد أن يخلقكم للبعث
كما بدأ خلقكم من نطفة . ثم قال : (فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة)
فهذا القدر يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، فجمع في هذه الآية الإيمان
بالله والإيمان باليوم الآخر ، والإيمان بالشرع والإيمان بالقدر ؛ وذكر فيها
تفصيل الشرع الذي أمر به ، وذكر حال من عكس الأمر فجعل المنكر
معروفاً والمعروف منكراً ؛ ثم ختم الآية بهذه المسألة العظيمة ، وهي (أنهم
اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) ، فلا أجهل
ممن هرب عن طاعة الله واختار طاعة الشيطان ، ومع هذا يحسب أنه مهتد
مع هذا الضلال الذي لا ضلال فوقه والله أعلم .